



EM/RC51/INF.DOC.11

ش م/ل إ51/وثيقة

إعلامية/11

أيلول/سبتمبر 2004

الأصل: بالعربية

اللجنة الإقليمية
لشرق المتوسط

الدورة الحادية والخمسون

البند 7 (ج) من جدول الأعمال

اتخاذ موقف إقليمي من الاستنساخ البشري

المحتوى

الصفحة	
أ	الموجز.....
1	1. المقدمة.....
2	2. الاستنساخ التوالدي في مقابل الاستنساخ العلاجي: النقاش العالمي.....
3	3. الاستنساخ من منظور ديني.....
6	4. الخاتمة.....
7	5. التوصيات.....
7	6. المراجع.....

الموجز

منذ زمن سحيق والإنسان يمارس التكنولوجيا البيولوجية بشكل أو بآخر. ولعل سعي الإنسان إلى التأثير في الطبيعة لصالحه هو سعي قديم قَدَمَ الإنسان ذاته. علماً بأن ما تحقّق مؤخراً من ضروب التقدّم في مجال الجينوميّات والتكنولوجيا البيولوجية قد قرّب الإنسان من استنساخ نوعه. غير أنه إذا تعلّق الأمر باستخدام الجينوميّات والتكنولوجيا البيولوجية مع النبات والحيوان، فقلّما يُعترض عليه، أما متى تخطّى الأمر هذا الحدّ، سعياً إلى التجريب على الإنسان، اهتزت منظومة القيم والمبادئ والمعتقدات التي عاش عليها الإنسان عبر قرون متطاولة. فلا مرأى في أن استنساخ البشر يُعتبر مُنكراً منافياً للأخلاق. إذ إن جميع الأديان والمجتمعات والثقافات تحرّمه، وهو يُعتبر انتهاكاً صارخاً لكرامة الإنسان ولكل قواعد الأخلاق. ومن ثمّ فإن هنالك إجماعاً عالمياً على حظر استنساخ البشر.

غير أن الاستنساخ لأغراض علاجية ينطوي على إمكانيات هائلة من شأنها إحداث ثورة في الطرائق العلاجية الطبية. إذ إنه يجدّد الأمل في شفاء بعض الأمراض التي ساد الاعتقاد باستعصائها على المعالجة. غير أن المُشكّل في ما يتعلق بالاستنساخ لأغراض علاجية هو أنه يتطلّب استخدام خلايا جذعية، علماً بأن أفضل الخلايا الجذعية هي تلك المشتقة من الأجنّة البشرية في بواكيرها. ومن ثمّ يُنظر إلى هذه التكنولوجيا باعتبار أنها تنطوي على إمكانية استنساخ البشر؛ وهو ما يثير الشكوك والمخاوف والقلق (أخلاقياً ومعنوياً) لدى الكثيرين من أن ينتهز الذين لا يراعون الحرمات الفرصة لتوخيّ مصالحهم. علماً بأن النقاش العالمي المحتم الآن هو حول ما إذا كان ينبغي حظر الاستنساخ بكل أشكاله. فالبعض يرى أنه لا ينبغي للحظر أن يشمل الاستنساخ للأغراض العلاجية، إذ إن ذلك من شأنه خنق البحث والتطوير العلمي وعرقله الجهود المبذولة لإيجاد علاجات جديدة شافية من أمراض تعتبر في الوقت الحاضر مستعصية على المعالجة، وتحسين صحة الإنسان في نهاية المطاف.

وتسمح بعض البلدان، في الوقت الحاضر، بأخذ الخلايا الجذعية من بواقِي الأجنّة المخلّقة بطرائق الإخصاب في المختبر. ويسمح بعضها الآخر بتخليق الأجنّة لغرض محدّد هو الحصول على الخلايا الجذعية. غير أن بعض البلدان لا تسمح بأي شكل من ممارسات الاستنساخ. وفي محاولة للتوصّل إلى إجماع عالمي بخصوص هذه القضية، عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتماعاً في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 2003، ولكنه لم يتوصّل إلى أي اتّفاق، وصوّت المشاركون فيه على إرجاء البت في القضية مدة سنتين، يُعتقد أن يتوافر بَعْدَهما المزيد من المعلومات التي يمكن في ضوئها اتّخاذ قرار باتّ في هذا الشأن، عن علم ودراية.

ومن وجهة النظر الإسلامية، فإن النقاش حول استنساخ الأجنة البشرية ينبغي أن يتركز بصورة أساسية على ثلاث مسائل رئيسية؛ أولاً، هل يتعارض الاستنساخ مع المعتقدات الإسلامية، ولأي مدى يُسمح به؟ وثانيها، ما هي العواقب المترتبة على الاستنساخ في المجتمعات؟ وثالثها، في أي مرحلة يُعتبر الجنين كائناً حياً؟ ويكاد يعتقد الجميع بأن استنساخ البشر محرّم. ويرى الكثيرون أنه ينبغي أيضاً تحريم الاستنساخ للأغراض العلاجية. غير أن الجميع متفقون على ضرورة استمرار البحث العلمي وتوليد المعارف الجديدة، ولاسيما متى كان ذلك لمنفعة البشر. إذ إن خنق أمثال تلك الجهود هو أمر مخالف لتعاليم الإسلام الأساسية. ولذلك يرى العديد من العلماء أن الاستنساخ للأغراض العلاجية يندرج في هذه الفئة، إذ إنه ينطوي على منفعة للبشر. ويرى البعض أنه لا يمكن اعتبار الاستنساخ مخالفاً للدين لأن الله تعالى يأمر بالاستزادة من العلم والنهوض بالمعرفة ﴿وقل رب زدني علماً﴾؛ وكما أن الإنسان لا يمكن اعتباره خالق النبات، ببذره بذوره، فإنه لا يمكن، بالمثل، اعتباره خالقاً للحياة البشرية.

وتختلف وجهات نظر فقهاء المسلمين حول ابتداء الحياة في الجنين. فعلى الرغم من أنهم جميعاً يتفقون على أن الحياة تبدأ منذ تكوّن الجنين، فإنهم يتفقون أيضاً على أن الجنين لا يعتبر إنساناً إلى أن تستقر الروح في الحميل. ويعتقد بعض علماء المسلمين أن ذلك يحدث في اليوم العشرين بعد المئة من تكوّن المضة، في حين يعتقد بعضهم الآخر أن ذلك يحدث في اليوم الأربعين. وتباين الآراء بين مختلف الثقافات والمجتمعات حول ابتداء الحياة في الجنين، والغرض من ذلك هو الحرص على عدم انتهاك حرمة الحياة البشرية وعدم الإضرار بكرامة الإنسان.

ومن المقرر أن تُجرى في العام القادم، برعاية الأمم المتحدة، المناقشة العالمية حول موضوع الاستنساخ. ولايزال النقاش بهذا الشأن دائراً بين علماء المسلمين وفي البلدان الإسلامية وسائر البلدان. ومن المهم ألا يقصر هذا النقاش همّة على المزايا العلمية، مُغفلاً الآثار المعنوية والأخلاقية والقانونية. علماً بأن الإسلام يدعم أيّ بحث علمي متى كان مقصوداً به التخفيف من آلام الإنسان ومن وطأة المرض. ومن ثمّ ينبغي للعالم العربي والإسلامي أن يواصل مناقشاته، وأن يتوصّل إلى توافق في الرأي، وأن يعرض وجهة نظره على الجمعية العامة. ومن الأهمية بمكان لأولئك الذين سوف يبتون في هذا الموضوع، أن يزنوا بعناية كل الخيارات، وأن يحلّوا ما قد يترتب عليها من مخاطر في مقابل المنافع، وذلك من خلال التقييم الصريح والمنصف. فالقرار الذي سوف يُتخذ في هذا الصدد سوف تترتب عليه عواقب بعيدة المدى على أجيال المستقبل.

1. المقدمة

لعلَّ من أشد الخلافات التي أثارها سرعة التطورات في ميدان البيولوجيا، ولاسيما في مجاليّ الجينوميّات والتكنولوجيا البيولوجية، ذلك الخلاف حول تقنية الاستنساخ. أما التقنية ذاتها فليست جديدة، إذ يجري تطبيقها منذ زمن طويل على مملكتيّ النبات والحيوان، من دون أن تثير أي قلق في الضمير الدولي. فالاستنساخ مقبول إذا ما تعلّق بأنواع أخرى غير النوع البشري، وإذا كان يقدّم منفعة للإنسان. وقد يتساءل المرء عن ما تعنيه منفعة الإنسان، اللهم إلا أن هذا الشكل من أشكال الاستنساخ (لغير البشّر) يعتبر مقبولا مادام يناسب احتياجات البشّر ومادام لا يلحق بهم ضرراً، ولا يتعارض مع معتقداتهم الدينية. أما المشكلة الكبرى فتتّشأ إذا بدأ تطبيق تقنية الاستنساخ على النوع البشري.

وقبل البدء في أي نقاش حول هذه القضية، فإن من المهم تعريف وفهم ما يعنيه الاستنساخ على وجه التحديد، ولاسيما استنساخ البشّر. يعرف الاستنساخ أو الاستنسال cloning في أبسط أشكاله، بأنه توليد نسخ طبق الأصل من الخلايا. ومعلوم أن الكائنات الوحيدة الخلية مبرمجة بطبيعتها لاستنساخ أنفسها. أما الكائنات المتعدّدة الخلايا والأنواع ذات المراتب العليا في سلّم الكائنات فتستنسخ نفسها، بحكم طبيعتها، من خلال آلية تناسلية تشارك فيها الخلايا الجنسية germ cells الذكرية والأنثوية. ومن ثمّ، فإن الاستنساخ الذي يُجرى في المختبر في الأنواع العليا، ينطوي على عملية تُستخرج فيها نواة خلية جسدية (غير جنسية) وتُغرز في خلية جنسية (بيضة أو بويضة) أنثوية مخصّبة ومنزوعة النواة. وبذلك تصبح لهذه الخلية القدرة على الانقسام والتحوّل إلى نسخ مطابقة للأصل الذي أخذت منه الخلية الجسدية. وبهذه الكيفية تم تخليق النعجة «دوللي» وهي أول نعجة مستنسخة. وهذا هو الاستنساخ النوّالدي reproductive cloning، الذي يمكن، نظرياً، تطبيقه على أي نوع من الكائنات الحية، بما في ذلك النوع البشري.

ونحن نعلم أنه يوجد في الإنسان (وفي سائر الأنواع الحيوانية) نوع من الخلايا يُسمّى الخلايا الجذعية stem cells، وهي خلايا لا متميزة، أي إنها لم تتحوّل بعد إلى أنماط معيّنة من الخلايا لأداء وظائف معيّنة في الجسم. غير أنه يوجد في نواها حمض الدنا DNA الذي يقوم بترميز المعلومات الجينية اللازمة لتميزها في المستقبل، مع نموّها. فمثلاً، الخلية الجذعية المرْمزة لنسيج الجلد تتحوّل في النهاية إلى نسيج جلدي، والخلية الجذعية المرْمزة لنسيج القلب تتحوّل إلى نسيج قلبي، وهكذا دواليك. وعندما تُستأصل نواة إحدى الخلايا الجذعية وتوضع مكانها نواة خلية من نمط مختلف، تُعاد برمجة الخلية الجذعية بحيث يكون نتاجها هو نتاج النواة المغروسة، متى تم نموّها. وهذا هو الاستنساخ العلاجي therapeutic cloning.

والحق أن الاستنساخ العلاجي ينطوي على إمكانيات هائلة. فهو يمكن أن يُحدث ثورة في الطريقة التي تجري بها الآن معالجة العديد من الأمراض، وتوفّر هذه الطريقة علاجات شافية لأمراض تعتبر حتى الآن مستعصية على المعالجة. فهذه التكنولوجيا تبشّر باستحضار أنسجة وخلايا محل نظائرها التي أتلّفها أو دمرها المرض أو غيره من الأسباب. ولتوضيح ذلك،

فإنه يمكن أن تُستأصل نواة إحدى الخلايا الجذعية ويُوضع مكانها حمض الدنا الموجود في خلية نامية، كأن تكون خلية من خلايا جُزُر لنغرهانس في البنكرياس وهي الخلايا التي تُفرز الإنسولين الذي يتحكّم في مقدار الغلوكوز الموجود في الدورة الدموية. وينقل النواة بهذه الطريقة تتحوّل الخلية الجذعية إلى خلية جَزيرية islet cell (نسبة إلى جزيرة لنغرهانس). وإذا تم النجاح لبحوث الاستنساخ العلاجي، أمكن استحضار عدد من الخلايا الجزيرية يمكن زرعها أو غرسها في جسم المصاب بالسكري لتحلّ محلّ خلايا الجُزُر المعطوبة وتنجح في معالجة السكري، بل والشفاء منه. وعلى نحو مماثل، يمكن تطبيق هذه الطريقة لإيجاد علاجات شافية للعديد من الأمراض. وتكمن الصعوبة في أن هذه التكنولوجيا لاتزال في مرحلة تجريبية وتحتاج إلى إجراء بحوث موسّعة قبل أن تُؤتي حصائل مثمرة تعم فائدتها. ويمكن الحصول على الخلايا الجذعية من أنسجة البالغ والحميل fetus، ومن الحبل السُري، ومن الأجنّة embryos في مطلع نموّها، ولو أنه يبدو أن قدرة الخلايا الجذعية على التحوّل هي قدرة محدودة، باستثناء الخلايا المشتقة من الأجنّة البشرية التي لديها، فيما يبدو، قدرة عالية على التحوّل إلى أشكال متعدّدة مختلفة [1].

2. الاستنساخ التّوالدي في مقابل الاستنساخ العلاجي: النقاش العالمي

هنالك في الوقت الحاضر توافُق عالمي في الرأي لدى جميع البلدان والأقاليم والأديان على عدم السماح بالاستنساخ التّوالدي. ويرتّكز هذا التوافق على سببَيْن رئيسيَيْن. أولهما أن العلم والمعرفة محدودان «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»، وأن الأمر ينطوي على مخاطر عديدة جداً. فالإجهاض هو مآل معظم الحيوانات المُستنسخة. ثم إن نسبة كبيرة منها لا يتعدّى نموّها المراحل الأولى، والعديد منها يولد إما مريضاً، وإما مشوّهاً. وقد تطلّب استنساخ النعجة «دوللي» بنجاح، إجراء 227 محاولة! ويعاني العديد من الحيوانات المُستنسخة من طائفة كبيرة من المشكلات النمائية وتموت قبل الأوان المعهود [2]. وثانياً، وهو الأهم، أن الاعتراض على الاستنساخ التّوالدي يرتكز على أسس معنوية، وأخلاقية، ودينية، وثقافية. ولا مرأى في أن إمكانية تخليق هذه التكنولوجيا للبشر تنطوي على آثار بعيدة المدى تهدّد بحسّ الأضواء عن القيم والممارسات التي عاشت البشرية عليها قروناً متطاولة، وهدم تلك القيم والممارسات المتأصلة. ولا يوجد في هذه المرحلة دين أو مجتمع مستعد للتغاضي عن استنساخ البشر، وهذا أمر مؤكّد لا مجال للبس فيه.

بيدّ أن النقاش المتعلق بالاستنساخ العلاجي يختلف عن ذلك بعض الشيء. فالغرض الرئيسي لهذه الطريقة من طرائق الاستنساخ يتمثل في شفاء المرض، وتحسين الصحة، ومن ثمّ السعي إلى تحسين نوعية حياة البشر. ويتطلّب هذا الضرب من الاستنساخ إجراء عمليات بحث وتطوير في الاستنساخ العلاجي، بهدف تحسين المعارف، والمهارات، والخبرات والطرائق اللازمة لتحقيق هذا الغرض المعلن. غير أن المشكلة تكمن في أن الاستنساخ العلاجي يتطلّب خلايا جذعية جنينية، ويتطلّب الحصول على تلك الخلايا توافُر الأجنّة. وتثير هذه التكنولوجيا بواعث للقلق الشديد، أخلاقية ومعنوية ودينية، تدور حول حقوق الجنين، وابتداء الحياة ذاتها فيه، وحول المخاطر التي تهدّد المرأة، وما إلى ذلك، كما أنها تثير القلق من إمكان استخدامها في استنساخ البشر. وإذا اتّسع

نطاق استخدام هذه التكنولوجيا بلا ضابط أو رابط، ازداد كثيراً خطر وقوعها في أيدي منعدمي الضمائر، الذين لا يراعون أي حُرمة.

وفي العديد من البلدان يستخدم الباحثون، في الوقت الحاضر، لأغراض الاستنساخ العلاجي، البُويُضات المخصَّبة، التي لم تُستخدَم، في عيادات معالجة العقم. ويُسمح لهذه البُويُضات بالانقسام والتحوُّل إلى أجنَّة، تُؤخذ منها الخلايا الجذعية الجنينية. كما يقوم بعض الباحثين، في عدد من البلدان، بتخليق أجنَّة لهذا الغرض المعين، وهو إجراء بحوث في الاستنساخ العلاجي. ولما كانت هذه التقنية لاتزال قيد التطوير، فإن الأمر يستلزم عدداً كبيراً نسبياً من الأجنَّة للحصول على خلية جذعية مناسبة. ويُسمح بذلك في عدد من البلدان بموجب تشريعات ملائمة، غير أن عدم وجود تشريعات منظَّمة لهذا العمل في بلدان أخرى يتيح للباحثين انتهاز الفرصة لإجراء بحوثهم في هذا المجال من دون رقابة. والحق أن هذه القضية تمثل أحد الشواغل العالمية، ومن ثمَّ يتمحور حولها النقاش الدولي. ومنذ عدة سنوات، تطالب البلدان بعقد اتفاقية في إطار الأمم المتحدة تتصدَّى للاستنساخ البشري. علماً بأن الأمر لا يتعلق بالاستنساخ التوالدي، الذي بيَّنا آنفاً أن الجميع متفقون على تحريمه، بل يتعلق الأمر بتأزُّم الوضع إزاء إثثار بعض البلدان فرض حظر كلي على جميع أشكال الاستنساخ، سواء كان لأغراض توالدية أو لأغراض البحث في الاستخدامات العلاجية، وإيثثار البعض الآخر أن ينصبَّ الحظر على الاستنساخ التوالدي، وترك تشريع الاستنساخ العلاجي لتقدير البلدان. علماً بأن المناقشة التي دارت حول هذه القضية في الاجتماع الذي عقده الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر 2003 لم تتوصَّل إلى توافق عالمي في الرأي حولها، وقرَّرت الجمعية بأغلبية ضئيلة إرجاء البت في الموضوع مدة سنتين، وذلك بناءً على توصية منظمة المؤتمر الإسلامي [3]. وقيل في هذا الصدد، أنه يُتوقَّع أن تتوافر خلال مدة السنتين معارف ومعلومات كافية حول الاستنساخ، وحينئذ يمكن تحقيق توافق عالمي في الرأي أكثر استنارة.

ومن المقرَّر أن تصوَّت الجمعية العامة للأمم المتحدة مرة أخرى على هذه القضية في تشرين الثاني/نوفمبر 2005. وفي حين أن موقف العديد من البلدان لا يزال على ما هو عليه من دون أي تغيير، فإن هنالك أعداداً متزايدة من البلدان ترى أن الحاجة إلى البحث في الاستنساخ لأغراض علاجية تفوق الأخطار التي تترتب عليه، وتهيئ الأجواء لدعم البحث (والتطوير) في مجال الاستنساخ العلاجي. وعلى الرغم من تصويت البرلمان الأوروبي في تشرين الثاني/نوفمبر من عام 2002 بفرض حظر شامل على الاستنساخ البشري [4]، إلا أن المملكة المتحدة قد منحت مؤخراً أول ترخيص للاستنساخ البشري من أجل استحضار الخلايا الجذعية [5]. وأوصى المجلس العلمي الأعلى في اليابان الحكومة بالسماح باستنساخ الأجنَّة البشرية على نطاق محدود لأغراض البحث [6]. كما أن الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت حكومتها تحظر على القطاع العام تمويل البحث في الاستنساخ البشري، قد سمحت مؤخراً جداً بدعم محدود مشروط للبحث في الخلايا الجذعية الجنينية. أما البلدان العربية فتتظر في فرض حظر إقليمي شامل على استنساخ البشر، سواء كان ذلك لأغراض توالدية أو علاجية. وقد نوقشت مسوِّدة معاهدة حول الاستنساخ

في اجتماع عُقد في أوائل حزيران/يونيو 2004 وحضره خبراء قانونيون يمثلون وزارات العدل بالدول العربية [7].

3. الاستنساخ من منظور ديني

لا مرأى في أن النقاش الدائر في إقليم شرق المتوسط حول الاستنساخ يتعيّن أن يبقى محصوراً في دائرة المعتقدات الدينية للمجتمع وقواعده الأخلاقية وقيمه. كما يتعيّن النظر إليه في إطار المهارات التقنية والمعارف والخبرات الموجودة حالياً في الدول الأعضاء، والأهم من ذلك أنه يتعيّن أن يؤخذ في الحسبان ما ينطوي عليه الاستنساخ من مخاطر. وبوجه عام، فإن الوضع في الإقليم في ما يتعلق ببحوث الخلايا الجنينية يتسم بالضعف؛ غير أن تقنيات التخصيب في المختبر هي شائعة الاستخدام. وتوجد لدى العديد من البلدان مرافق متطورة لبحوث الخلايا الجنينية الحيوانية. ومن ثمّ، فإنه ما لم تتوافر أنظمة ودلائل إرشادية واضحة، فإن الفرصة تُتاح لاستغلال تلك البحوث وإساءة استخدامها. وفي الوقت نفسه، فإن بعض الدول الأعضاء بالإقليم (فضلاً عن بعض الدول الإسلامية من خارج الإقليم) تقوم على جناح السرعة بتطوير بنيتها الأساسية العلمية التي يتخذ فيها البحث والتطوير للأغراض الصحية وضعاً قوياً، ويتبوّأ بالتدرّج مكان الصدارة. ومن ثمّ، فإن أهمّ التحدّيات في هذا الصدد، يتمثّل في إيجاد توازن بين ضرورة تحاشي امتهان الكرامة الإنسانية الذي يمكن أن يحرّض عليه استنساخ البشر، وبين الحاجة إلى التحسين المطرد في جودة الحياة من خلال البحث والتطوير.

ومن المنظور الإسلامي، فإن النقاش حول استنساخ الأجنّة البشرية ينبغي أن يتركز بصورة أساسية على ثلاث مسائل رئيسية. أولاً، هل يتعارض الاستنساخ مع المعتقدات الإسلامية وإلى أي مدى يُسمح به؟ وثانيها، ما هي العواقب المترتبة على الاستنساخ في المجتمعات؟ وثالثها، في أي مرحلة يعتبر الجنين كائناً حياً؟

وقد وافق مجمع الفقه الإسلامي، في اجتماعه المعقود عام 1997، على أن الاستنساخ لا يتعارض مع الدين الإسلامي الحنيف. فالله هو خالق الكون، ومن ثمّ فإن تقدّم المعارف وتطور التكنولوجيا بما جعل الاستنساخ ممكناً، هو أمر قد قضت به مشيئة الله منذ الأزل. فكما أن الشخص الذي يبذر البذرة ليس هو خالق النبات الناتج عنها، فإن تقني الاستنساخ ليس هو خالق النبات أو الحيوان المستنسخ [8]. وعليه، يمكن النظر إلى الفتح العلمي في مجال الاستنساخ باعتباره صورة من صور المشيئة الإلهية لتدريب الإنسان والترقي به في معارج النضج الأخلاقي [9]. وهناك اتفاق عام في الرأي على أن الشريعة الإسلامية السمحة لا تحرم استنساخ النباتات أو الحيوانات لتحسين جودتها وإنتاجيتها، ولاستحضار علاجات شافية للأمراض البشرية.

وتُجمع البلدان الإسلامية وعلماء المسلمين على معارضتهم لاستنساخ البشر. فقد صدرت في شتى أرجاء العالم الإسلامي دعوات عديدة لتحريم استنساخ البشر، وذلك من خلال الفتاوى، وآراء علماء الدين، ومن خلال استطلاع آراء المجتمعات، والهيئات الإسلامية الوطنية والدولية [10, 11].

87. وأهم الأسباب التي تُساق في هذا الصدد، هي الخشية من أن الإنسان يحاول، بخلقه للحياة، أن يقوم بدور الله. إن الله وحده هو الخالق، وليس البشر. والاستنساخ طريقة غير طبيعية للتناسل تتعارض مع ما قضى الله به على الإنسان. وبالاستنساخ تنتفي أو اصر القربى والأنساب وكلاهما من القيم الجوهرية المحورية في منظور الإسلام. فمن يا ترى يكون أبا المستنسخ أو أمه أو أخاه أو أخته؟ إن اختلاط الأنساب أو انتفاءها يُعدُّ حراماً، ومن ثمَّ يحرمُّ الشرع كلَّ ما يؤدي إليه. كما يُخشى من قدرة الاستنساخ على تخليق بشر بمواصفات معينة تفوق مواصفات الإنسان العادي أو تنحط عنها، تبعاً لدوافع وتقدير المستنسخ. ولاريب في أن ذلك يضر بالمجتمعات وبالطبيعة ضرراً كبيراً. والحق أن جميع ديانات العالم الكبرى تعارض استنساخ البشر [12]، وبخاصة للأسباب الآتية: (أ) خشية إفساده علاقات القربى والأنساب العائلية التقليدية أو تدميرها، (ب) ولكون تدمير الأجنة لأغراض البحث هو بمثابة فعل من أفعال القتل العمد، (ج) ولأن الاستنساخ هو بمثابة تدخل للإنسان لا ينبغي له في ملكوت الله.

وإذن، فإن مبعث الفلق الرئيسي من استنساخ البشر يكمن في التخوف من أن تُصبح للإنسان القدرة على معاودة استيلاء نفسه، مما يتعارض تعارضاً جلياً مع المعتقدات، والقيم، والنظم، والبيئات التي عاش الإنسان في أكنافها قروناً مديدة. ومما يعزّز ويبرر معارضة استنساخ البشر، ما هو متاح في هذه الأونة من معارف محدودة، وما تنطوي عليه إجراءات الاستنساخ ونتائج من مخاطر شديدة. غير أن البشر جميعاً يتفقون على معيار مشترك واحد، هو رغبة الإنسان وتصميمه على التخفيف من المعاناة البشرية ومن وطأة المرض. وقد كان هذا هو أحد المبادئ الأساسية لتطور البشرية عبر العصور، وفي كل المجتمعات والثقافات والديانات. وفي شتى أرجاء العالم الإسلامي، فإن جميع الفتاوى الدينية، والمراسيم، والقرارات، والتوصيات المعارضة للاستنساخ، تمثل رسالة واضحة مؤدّاه أن عافية الأفراد هي من المقدّسات التي لا يحلّ انتهاك حرمتها. علماً بأن الإسلام يشجّع البحث والاستقصاء ويحث عليهما. وفي الماضي، كانت الأدوية ثم اللقاحات من بعدها بمثابة اكتشافات مهمة أتاحت الشفاء من الأمراض والوقاية منها. وها هي تكنولوجيا الاستنساخ تتيح لنا الآن طرقاً وفُرصاً جديدة للشفاء من الأمراض. وقد أمر النبي ﷺ بكل وضوح بالتداوي «لأن الله تعالى لم يخلق داء إلا خلق له دواء، علّمه من علمه وجهله من جهله» [10].

وفي معرض تحديد أسباب تحريم استنساخ البشر في الإسلام، يؤكّد فضيلة الفقيه الكبير الشيخ يوسف القرضاوي، أن الإسلام يؤيّد التقدم والبحث العلمي، وأنه لم يحدث قط في التاريخ الإسلامي أي تعارض بين الإسلام والعلم. ومن ثمَّ، إذا عمد الاستنساخ إلى خلق البشر، فإنه يخالف المعتقدات الإسلامية، ولكن إذا استُخدم لتخليق أجزاء من جسم الإنسان، كالقلب والكليتين، لأغراض علاجية، فإنه لا يكون جائزاً فحسب، بل يكون مندوباً ويُثيب الله عليه [13]. ويجدر بالملاحظة أن أعضاء مجمع الفقه الإسلامي، في ندوتهم لعام 1997، مع تأكيدهم الواضح لموقف المجمع من عدم تجويز الاستنساخ لأغراض علاجية، قرروا أنه يمكن تجويزه في المستقبل، في حالات استثنائية، شريطة أن لا يكون تطبيقه مخالفاً للشريعة الإسلامية [8].

يُضح مما تقدّم أنه لا خلاف على قضية الاستنساخ البشري في المنظور الإسلامي. فهو محرّم تحريماً كلياً، مع انتفاء أي آراء معارضة لهذا التحريم. غير أنه بالنظر إلى أن الإسلام يأمر الأمم بطلب العلم والمعرفة («طلب العلم فريضة»)، وبيارك البحث عن علاج شاف لأمرض البشر («علمه مَنْ علمه»)، فإن الباب لا يزال («مُوارباً») للبحث في الاستنساخ للأغراض العلاجية. إذ ينبغي تشجيع هذه التكنولوجيا، مادامت لا تسعى إلى خلق البشر، وإنما تسعى إلى شفاء الأمراض والعلل، ومادامت لا تتعارض مع معتقداتنا الدينية.

ولما كان البحث في الخلايا الجذعية يتطلّب تخليق أجنة فمن الأهمية بمكان، البحث في الكيفية التي ينظر بها الإسلام إلى بدء الحياة ذاتها، فأى عبث بالأجنة، ومن ثمّ أي عبث بالحياة، يتعارض تعارضاً مباشراً مع تعاليم الإسلام، ومن ثمّ فهو حرام. وقد تركّز النقاش حول هذا الموضوع في ندوة عن الحياة البشرية: بدايتها ونهايتها من منظور الإسلام، عُقدت في الكويت عام 1985 [14]. وقد قسّم المشاركون في الندوة بدء الحياة إلى ثلاث مراحل متميِّزة؛ أولاًها مرحلة اندماج النطفة في البويضة مكونتين لأقحة (زيجوت). وفي هذه المرحلة يتكوّن الراموز الجيني للفرد الذي يتخلق من اللاقحة مع نموّها. أما المرحلة الثانية، فتبدأ عندما تعلقّ العلقّة داخل جسم المرأة (في رحمها، في هذه الحال). وأما المرحلة الثالثة فتبدأ متى استقرت الروح في الحميل. ويتم هذا في اليوم العشرين بعد المئة من تكوّن الجنين، ولو أن بعض المسلمين يعتقدون أن هذا يتم في اليوم الأربعين من تكوّن الجنين. ويُعتبر الجنين منذ حمله كائناً حياً يتعيّن توقيره في جميع مراحل تكوّنه، ولاسيّما بعد نفخ الروح فيه. ومن ثمّ فإن الكثيرين من علماء المسلمين يرون تحريم العبث بالجنين في أي مرحلة بعد الحمل (لإجهاضه مثلاً)، إلا في حالات الضرورة. ويعتقد جمهور الفقهاء أن الإجهاض يكون أقلّ حرمةً قبل اليوم الأربعين من تكوّن الجنين، ولاسيّما إذا وُجدت مبررات للإجهاض. ومن الجليّ أن المسلمين يعتبرون أن الجنين قد أصبح في عداد البشر متى نُفخت فيه الروح. وعلى ذلك يمكن القول على الأقلّ بأن الإسلام لا يحرمّ البحث في المرحلة الجنينية الباكرة تحريماً باتاً، ولاسيّما إذا كان هذا البحث مبرراً وضرورياً. بيّد أن الطريقة التي يمكن بها الحصول على الجنين والمخاطر التي تتهدّد المرأة التي يؤخذ منها الجنين، تثير مشكلات أخلاقية واجتماعية ذات بال.

ثم إن معظم الديانات الكبرى الأخرى تتخذ آراء مماثلة. فالكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعارض بشدة كل أشكال الاستنساخ، في حين أن بعض الشخصيات البارزة من المنتمين إلى المذهب البروتستانتي المحافظ، وإن كانوا يعارضون الاستنساخ البشري، نظراً لغموض الوضع في ما يتعلق بالجنين، فإنهم يؤيدون الاستنساخ لأغراض علاجية، نظراً لما ينطوي عليه من فوائد صحية. ومن ثمّ، فلا غرو في أن النقاش الدولي الدائر حول حظر جميع أنماط الاستنساخ، تنتزعه بلدان أغلبية سكانها من الكاثوليك وبلدان أخرى لها نفس الآراء. وتُقارب وجهة نظر اليهود في ما يتعلق بوضع الجنين وجهة نظر المسلمين. فالديانة اليهودية لا تعتبر الجنين المخصّب بشراً سوياً، وترى أن الأسبقية هي للبحوث التي تنطوي على إمكانية إنقاذ الحياة وحفظها.

ويمكن النظر إلى الحياة من خلال منظور النمو التشريحي للجنين. فيرى البعض أن الجنين يعتبر حياً أول ما يتحرك تحركات تشعر بها الأم التي تحمله (في الأسبوع السادس عشر من الحمل)، وإن كانت تكنولوجيا ما فوق الصوت يمكنها التعرف على تحركات الجنين في الأسبوع العاشر من الحمل. ويرى آخرون أن الحياة تبدأ في الجنين مع أولى علامات دق القلب، والتي تبدأ في أواخر الأسبوع الثالث من الحمل. وهناك آخرون غيرهم يعتبرون الجنين حياً متى بدأت أجهزة الحس في التكوّن بعد الأسبوع الثاني من الحمل، مع تمايز الخلايا العُرفية العصبية، التي هي طلائع الجهاز العصبي البشري. وفي المملكة المتحدة، حيث أُجيز مؤخراً البحث في الخلايا الجذعية للجنين، لا تسمح قواعد القانون بتنمية المُضغّة لأكثر من 14 يوماً [5].

4. الخاتمة

من الضروري لأي نقاش يدور حول الاستنساخ أن لا يقتصر على مزاياه العلمية. كما لا ينبغي النظر إلى تقدّم العلم باعتباره خطراً يهدّد العقيدة الدينية أو باعتباره معارضاً لقيم الإنسان وثقافته التي عاش عليها رديحاً طويلاً. فبالبحث والعلم تدور عجلة التجديد والابتكار من أجل التنمية البشرية. ومن المهم، متى بدأ العلم الخلاق والتكنولوجيا الخلاقة في انتهاك حرّامات المفاهيم القديمة والمتأصّلة لأصول الدين والثقافة، أن يشارك العلم والدين في حوار مثمر يتوصّلان به على توافق مستنير في الرأي لصالح الناس كافة.

وقد ذكرت مجلة «نيوز ويك» مؤخراً في تقرير لها أنه قد تمّ بنجاح في الولايات المتحدة الأمريكية اشتقاق الخلايا الجذعية من أجنة مستنسخة [15]. وقد أكّد هذا النّبأ الهوة التي تفصل بين أولئك الذين يعتقدون بضرورة تجريم الاستنساخ وتحريمه تماماً، وبين أولئك الذين يؤيّدون تجريم الاستنساخ التّوآدي، ولكن لا يؤيّدون حظر الاستنساخ لأغراض البحث الطبي. بيّد أن الأوضاع تتغيّر بمضي الوقت. فثمّة بلدان كانت تعارض بقوة أي شكل من أشكال الاستنساخ، أثناء النقاش الذي دار مؤخراً في إطار الأمم المتحدة، كالولايات المتحدة الأمريكية، تتخذ الآن موقفاً جديداً. فقد سمحت حكومة الولايات المتحدة، مؤخراً جداً، بإجراء بحوث على نطاق محدود في الخلايا الجذعية، وأجيز في ولاية واحدة منها على الأقل الاستنساخ لأغراض البحث في الخلايا الجذعية [16]. وقد حذت عدة بلدان أخرى هذا الحذو. ومن ثمّ يتزايد على الصعيد العالمي عدد البلدان المؤيّدّة للاستنساخ العلاجي من خلال البحث في الخلايا الجذعية، مع بقائها معارضة للاستنساخ البشري. وقد حدث ذلك في ضوء المعارف المستجدة والأمل المتجدّد في ما تتيحه هذه التكنولوجيا من علاجات شافية للأمراض المستعصية.

ومن المقرّر عقد النقاش القادم حول الموضوع في الأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر من العام القادم. ومن الأهمية بمكان أن تتوصّل البلدان الإسلامية إلى توافق في الرأي على هذه القضية الحيوية. علماً بأن تطوير العلم والتكنولوجيا لتحسين الصحة هو واجب ديني والتزام أخلاقي. وثمّة ضرورة حاسمة (وملحة) لأن يناقش علماء المسلمين القضايا المتعلقة بالاستنساخ

مناقشة رشيدة، مع توحّي العناية في تحليل منفعه ومضاره، بما يسفر عن نتيجة متوازنة. وقد شدّدت جامعة الدول العربية على ضرورة إجراء حوار إقليمي على كل المستويات حول أخلاقيات الرعاية الصحية والاستنساخ البشري. علماً بأن بعض بلدان العالم الإسلامي تقف على عتبة إجراء بحوث رائدة واستخدام تكنولوجيا متطورة في ميدان الوراثة، بل إن بعضها قد تخطّى تلك العتبة، بما يكاد يماثل ما تحقّق من تطوّرات في البلدان الصناعية المتقدّمة. فهل ينبغي للبلدان أن تُوصد الباب أمام هذا التطوّر في رد فعل غاضب من دون اكتشاف كل ما ينطوي عليه من إمكانيات، وتقدير جميع المعايير المتعلقة به، والنظر في مدى تأثيره المحتمل على صحة البشر وتخفيف الأهم؟ ومن ثمّ، فالسؤال المهم الذي يتعيّن على البلدان الإجابة عنه، هو ما إذا كان ينبغي التوصية بفرض حظر شامل على كل أشكال الاستنساخ البشري، أو فرض حظر على استنساخ البشري، مع إفصاح مجال للبحث في الاستنساخ العلاجي والخلايا الجذعية. ولا ريب أن اتّخاذ البلدان العربية والأمة الإسلامية قراراً مشتركاً حول هذه القضية سوف تكون له آثار مهمة وعواقب بعيدة المدى، لا في البلدان الإسلامية فحسب، بل في النقاش العالمي المقرّر أن يتم في العام القادم في الأمم المتحدة.

5. التوصيات

1. إعادة تأكيد الإجماع العالمي على حظر استنساخ البشر.
2. قيام البلدان الإسلامية بتنظيم نقاش على الصعيد الوطني حول الاستنساخ لأغراض علاجية، على أن يشارك في النقاش جميع المعنّيين من العلماء، والفقهاء، ورجال الدين، وأصحاب القرار السياسي، ومؤسسات المجتمع، سعياً إلى التوصل إلى اتفاق في الرأي على الصعيد الوطني، والعمل على تحسين المعارف والمهارات والخبرات في هذا المجال.
3. إعداد القواعد والأنظمة والدلائل الإرشادية اللازمة لضمان تطوير الاستنساخ للأغراض العلاجية، من جهة، ولردع ومراقبة أي استخدام لهذه التكنولوجيا لا يرقى الحرمان، أو أي إساءة لاستخدامها، من جهة أخرى.

6. المراجع

1. *Genomics and world health. Report of the Advisory Committee on Health Research.* Geneva, WHO, 2002.
2. Leather S. Human cloning—what should we really be frightened of? *Clinical medicine*, 2004, 4:299-391.
3. The Scientist: UN delays cloning vote. November 2003.
<http://www.biomedcentral.com/news/20031107/08> (accessed 26/9/04).

4. European parliament voted today by a large majority in favour of a total ban on human cloning. <http://www.spuc.org.uk/news/20021121.htm> (accessed 26/9/04).
5. Science and space. Human cloning license issued in UK. <http://edition.cnn.com/2004/TECH/science/08/11/britain.cloning.ap/> (accessed 23/9/04).
6. Japan science council backs human embryo cloning, 24 July 2004, http://www.womenfitness.net/jp_embryo_cloning.htm (accessed 26/9/04).
7. *SciDevNet News*. Arab States consider total ban on cloning. <http://www.scidev.net/news/index.cfm?fuseaction=readnews&itemid=1421&language=1> (accessed 26/9/04).
8. Islamic Fiqh Academy: Cloning and more. Meeting of the Islamic Fiqh Academy. 28 June–3 July 1997. http://www.jamiat.org.za/c_facademy.html (accessed 26/9/04).
9. Sachedina, A.A. Cloning in the Quran and Tradition. Islamic perspectives on human cloning. www.people.virginia.edu/~aas/article/article4.htm (accessed 26/9/04).
10. Islam and human cloning. www.islam101.com/science/cloning.htm (accessed 26/9/04).
11. Islamic verdict on: cloning, human organ transplantation, abortion, test-tube babies, life support systems, life and death. London, Al-Khalifa Publications, 1999.
12. MSNBC. Religions reveal little consensus on cloning. Bob Sullivan. Technology correspondent. <http://msnbc.msn.com/id/3076930/> (accessed 26/9/04).
13. Cloning and its dangerous impacts, Fatwa, Sheikh Yusuf Al Qaradawi. www.islamonline.net/fatwa/english/fatwadisplay.as?hFatwaID=46058 (accessed 23/9/04).
14. Human life: its inception and end as viewed by Islam. www.islamset.com/bioethics/incept.html (accessed 26/9/04).
15. Kalb C. A new cloning debate. A scientific breakthrough inspires hope for future cures and reignites vows to outlaw embryonic research. <http://www.keepmedia.com/pubs/newsweek/2004/02/23/379090> (accessed 26/9/04).
16. Florida Baptist WITNESS. N.J. gov. signs bill allowing cloning, stem cell research. www.floridabaptistwitness.com/2008.article (accessed 26/9/04).